

الفصل الرابع

كيف نجابه اخلاقنا وعاداتنا

الاخلاق اعظم من العقل . ففساد الصلاح الساطع يجب نور الذكاء العقلي ، كما تحجب اشعة الشمس نور القناديل الكهربائية .

امرسن

كل ما يطلبه النفس الكبيرة موجود فيها . اما ما تفتش عنه النفس الصغيرة فهو عند الأغيار .

كنفوشيوس

ان داخل الانسان عالم واسع جداً فيه كل شيء مهم . اما الظواهر العالمية الخارجية فتستمد جمالها ولونها وقيمتها من ذلك العالم الداخلي .

جيمس رسل لول

الخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بها، تصدر عنها الافعال مع السهولة دون حاجة الى التفكير والروية . فان صدرت عنها الافعال المحمودة ، سُميت خلقاً حسناً . وان انبعثت عنها الاعمال القبيحة ، سُميت خلقاً سيئاً .

والخلق في النفس كالخلق في الجسم . وامهات محاسن الأخلاق اربع فضائل : الأمانة - العدل - الاعتدال - الشجاعة .

ويدخل تحت ضدّ الأمانة الذي هو الخيانة : المكر - الخداع - الدهاء - العناد - الكفر - الشك - الفيرة .

ويدخل تحت الظلم الذي هو ضدّ العدل : حبّ النفس - الطمع - البخل - حبّ الرياسة - التسلط - الافتخار - الغضب - حب الانتقام - الحسد .

ويندرج تحت ضدّ الاعتدال : حبّ التمتع - الامتلاء بالاكل والشرب - الشره - الحرص - التبذير - التقدير .

ويندرج تحت ضدّ الشجاعة : الجبن - التكبر - العجب - الذل - الحساسة - الوقاحة - الرياء - الملق - الخ .

ان البحث في الأخلاق هو من أهمّ الابحاث التي تناولها علماء النفس والاجتماع . فيرى فريق ان الاخلاق لا تتغير لأنها غريزية في نفس الانسان . ويرى البعض الآخر ان الاخلاق تتغير تبعاً للظروف والامكنة والشعوب .

فالفيلسوف الانكليزي « كانت » Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م .) يرى ان الاخلاق قضاء لا مردّ له لا يمكننا ان نغيّرها بأي حال من الاحوال . وتبعه الفيلسوف الألماني « شوبنهور » Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠ م .) قائلاً : « ان الاخلاق لا يمكن تغييرها ابداً . » اما الفيلسوف الانكليزي « هربرت سبنسر » H. Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م .) فيرى ان الأخلاق يمكن ان نغيّرها بعد مضي اجيال تبعاً لظروف المعيشة والوسط .

ونحن اذا حللنا الأخلاق الفيناها عادات اعتادها الشخص في الأغلب وهو صغير . ومن المعلوم ان لكلّ منّا ميولاً ورغبات تختلف في قوتها وضعفها . اي تختلف في قدرتنا على ضبطها او في عجزنا عن ذلك . لأننا كلنا نتشابه ، بل نكاد نتساوى في قوّة الفرائز الأوّلية . وانما تختلف في تسلّطنا عليها ، أو تسلّطها علينا . ويرجع هذا الاختلاف الى عادات اعتدناها في السنين الأولى من حياتنا ، حيث كان للايجاء بقوّة المحاكاة والقدرة اثر كبير في نفوسنا . فتربية الأخلاق هي تربية الطفولة والصبا معاً . ولكل من العادات الاخلاقية طرفان : ايجابي وسلبي اي الاقدام والاحجام . وفي اخلاق كل شخص منا يغلب احد الطرفين على الآخر بحكم النشأة الأولى التي انتشأ عليها . فاذا رأينا شاباً نشأ على اخلاق سيئة ، وأردنا إصلاحه ، فلا يكون ذلك الا بتغيير الوسط . فاذا تغير الوسط ، طالب هذا التغيير الشخص بعادات جديدة تختلف عن عاداته القديمة . والعادة الجديدة يسهل غرسها اذا كانت من جنس العادة السابقة ، او قريبة منها . وكثيراً ما يكون تغيير الوسط دواءً حاسماً للعادة السيئة . فالفلاح القانع ، الذي لا تمتد اطباعه الى ابعد

من حقله ، يستحيل الى رجل مملوء بالمطامع والنوازع ، اذا صار صانعاً في المدينة الكبرى ، فينتظم في الجمعيات والاحزاب ، وتتطلع نفسه الى كل شيء ، ويعود يحترق جهله السابق . والزاهد في الدنيا ، ما دام منزوياً في بيته ، لا يحس الا بدوافع الزهد والاعتكاف ؛ فاذا اردنا ان نغير هذه الميول في نفسه ، وجب تغيير الوسط ، كأن نضعه في مدينة عامرة بالحضارة ، حافلة بالناس ، فانه عندئذٍ يستجيب الى هذا الوسط الجديد بالتطلع والرغبة في المعرفة والحركة ، وينسى اعتكافه السابق . وقد كان العلماء يؤمنون قديماً بالوراثة . وانها أفعل من الوسط في ايجاد الاخلاق . او هي على الاقل ليست دونه في تكوينها . ولكن علم النفس الحديث يثبت ان الناس كلهم يستوون في الاسس الأولية للأخلاق ؛ وانما يحدث الاختلاف من النشأة الأولى التي تجعل الذهن يتجه الى اشياء دون أخرى ، وهذه النشأة الأولى هي وليدة الوسط . وبناء عليه ان الاخلاق تتغير تبعاً للظروف والامكنة والوسط .

قلنا اننا اذا حللنا الاخلاق الفيناها عادات . ويراد بالعادة كل فعل او فكر او شعور اعيد تكراراً ، حتى لم يعد فعله يقتضي من التفكير والارادة قدر ما اقتضاه اولاً . والعادة اذا تمكنت من صاحبها صارت ملكة ، بل غريزة ، بل خلقاً . والعادات اقل تمكناً من الغرائز والطباع . ولكنها ليست بما يسهل نزعها او تغييره . وهي ليست على درجة واحدة من القوة والتمكن ، بل تختلف بحسب مزاولتها .

اما كيفية حدوث العادة فهي ان الدماغ مقرّ العادات والاخلاق

والطباع والقوى العقلية. وان اوّل فعل يفعله الانسان من الافعال الممهدة للعادة يكون بارادته. ثم يكرر هذا الفعل مرّة بعد اخرى حتى يمهد له طريق بين دقائق الدماغ واعصابه. فاذا تم له ذلك، يصبح عادة. والعادات على انواع، جسدية وعقلية وادبية. فالجسدية إما افعال قديمة طبيعية تغيرت بحكم التكرار. او افعال جديدة مكتسبة. وقد يؤثر التكرار في قوى العقل حتى تملكها العادات، كما تملك حركات الجسد العادات الادبية مثل: الحزم والشهامة والشجاعة والطاعة والمروءة، فانها تقوى وترسخ في النفس بالتعود والممارسة. اما مضارّ العادة، فهي اذا تمكنت من النفس، وصارت اخلاقاً، تنتقل الى النسل بالارث والقدوة. وقد تكل بها الحواس والمشاعر، فلا تعود تتأثر من الخير والشر، ولا تفرق بين الحلال والحرام.

يبدو للكثيرين ان التخلص من عاداتهم شيء هائل مزعج. وانهم لا يوجد لديهم القوة الكافية للنضال ضدّ ما الفته انفسهم وتعلقت به. غير عالمين ان تصوّرهم هذا يجعلهم في حالة ضعف يجرّهم الى الفشل وزيادة الانغماس فيما ارادوا التخلص منه.

ولكي يتخلص الفرد من العادات الضارّة، يجب ان لا يتصورها شيئاً مخيفاً، حتى لا يقع في الدائرة المفرغة التي تضعف مقاومته لاغراء العادة وانغماسه فيها بالتالي. وعلى ذلك فانه يمكن للشخص المدمن عادة شرب الخمر او عادة التدخين مثلاً، ان يتخلص من عاداته بتصوّر انه يعيش في عالم لا يوجد فيه الخمر او التبغ. وهو بهذا لا يحتاج لنضال كبير. وكل

ما يحتاج اليه ، هو ان يطبع في عقله الباطن (اي في اللاشعور) الصورة التي يرغب فيها ، وهي صورة العالم الخالي من الخمر والتبغ . وسيقبل العقل الباطن هذا الاجراء على علته . وبهذه الطريقة يتخلص الانسان من العادة بأقل جهد ممكن . غير ان ذلك لا يتم في يوم وليلة ، بل يستغرق وقتاً قد يكون طويلاً . فعلى المرء ان يثابر على خطته الى النهاية .

مصادر هذا البحث

الاخلاق وعلم العادات تأليف « ليفي برهل » .

La Morale et la Science de Mœurs par Lévy Bruhl

الاخلاق وبعض مشاكل العالم الحديث . تأليف « ولیم مکدوجال » نشر هذا الكتاب عام ١٩٢٤
Ethics and some modern World problems : W. Mc Dougall

الاخلاق تأليف « وندت » (١٨٣٢ - ١٨٨٦ م .)

Ethics : Wundt

الاخلاق والحرب . تأليف « اوزفلد كيلبه » (١٨٦٢ - ١٩١٥ م .)

Die Ethik und der krieg. : O. Kulpe

نشأة فكرة الاخلاق وتطورها . تأليف « وسترمارك » .

The origin and development of the moral ideas : Westermarck

مجلة الميتافيزيقيا والاخلاق . تصدر في باريس صاحبها « ده لاكروا » .

Delacroix

تكوّن العادات . تأليف « بول جيوم » .

La formation des habitudes par P. Guillaume

العادة تأليف « برنس مورتن » نشرته مجلة الطب الاميركية عام ١٩٢٧ .

L'habitude par P. Morton

المشكلة الأخلاقية والفلاسفة . تأليف « اندره كريسون » .

André Kresson

نقله الى العربية الدكتور عبد الحلیم محمود المصري .

الآفات الاجتماعية وعلاجها. للفيلسوف الروسي الكونت «ليون تولستوي» (١٨٢٨-١٩١٠م)

نقله الى العربية الاستاذ محمد رضا المصري .

الاخلاق للامام ابي بكر محيي الدين بن عبد الله الطائي الحاتمي المعروف باسم محيي الدين بن العربي
(١١٦٥ - ١٢٤٠ م .)

الاخلاق تأليف السيد « صموئيل مسميز » (١٨١٢ - ١٩٠٤ م .) نقله الى العربية الاستاذ
محمد صادق حسين المصري .

تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق . تأليف « ابن مسكويه » وهو الامام ابو علي احمد بن محمد
ابن يعقوب المتوفى عام ١٠٣٠ م .